ما ينشر في هذه الصفحة لايعبر بالضرورة عن رأي الصحيفة

مدفيديف يهدد.. أوروبا ستدفع ثمن العقوبات

قسم الاول

جورج حداد

يستغرب كثيرون الموقف الاوروبي المعادي لروسيا، والسائر بشكل ذيلي خلف الموقف الاميركي، فيما يتعلق بالازمة الاوكرانية وفرض العقوبات غير المبررة على روسيا. فاذا كان موقف الامبريالية الاميركية التي تطمح الى الهيمنة على العالم هو "مفهوم" و"طبيعي"، فإن موقف اوروبا، المضر بمصالحها بالذات، هو غير مفهوم من قبل كثيرين.

ومع كل اهمية الوضع الراهن (conjuncture) في العلاقات الدولية، ففي رأينا المتواضع ان ذلك يعود بدرجة اساسية الى الثقافة السياسية السائدة في الغرب والتي تنظر الى روسيا نظرة عداء منذ زمن بعيد.

خبرٌ مرّ منذ أسبوعين ولم يحظَ بتغطية اعلامية وافية، ولكن المختصين والمعنيين قرأوه باهتمام بالغ: أعلنت إيران قيامها بأوّل تجربة حيّة لنظام الدفاع الجوي "بافار-٣٧٣"، الذي يقال انه يوازي - أو استنساخ عن - نظام "اس ٣٠٠" الروسي. في الوقت نفسه، عرضت وسائل الإعلام الايرانية أوّل صورة لأحد الصواريخ الخاصة بنظام "بافار"، وهو يشبه الى حدّ بعيد الصاروخ المستعمل في "اس ٣٠٠". تمثل التجربة بدء اكتمال الحلقة الأخيرة في منظومة الدفاع الجوي الإيرانية، والتي تتكوّن من أنظمة عدّة تعمل على مديات عدة، بعضها تطويرٌ لأسلحة اميركية قديمة، وبعضها الآخر استنساخٌ لرادارات وصواريخ اجنبية، ومنها ما هو مزيجٌ بين الاثنين.

تقدير القوّة العسكرية في إيران مهمة صعبة إلى حدّ بعيد، فالعديد من المشاريع تحاط بالسريةً، ولا يكشف عنها الا بعد اكتمالها، فيما تزيد دعاية وزارة الدفاع من الغموض، فيتمّ عرض بعض النماذج البحثية والتجريبية على انها أنظمة قد دخلت طور الانتاج، ويتمّ الخلط بين المنجزات الفعلية والدعاية التي تهدف الى التضليل. وكثيراً ما تفسّر الصحافة الايرانية بيانات الجيش بصورة خاطئة (والاعلام، بشكل عام، معروفٌ بجهلِه في القضايا العسكرية وتغطيته القاصرة لهذه المواضيع)، فتساهم في تغذية الالتباس.

ما نعرفه هو أنّ الولايات المتحدة وإسرائيل كانت تخطط جدياً لحربٍ ضدّ إيران، أو أقلّه حملةٌ جوية لضرب البرنامج النووي الإيراني وأهداف عسكريّة اخرى، منذ أيّام غزو العراق. حتى أنّ إحدى كبريات شركات الطاقة في العالم تلقت تقارير من الاستخبارات الروسية، عام ٢٠٠٦ تؤكد أن الحرب حاصلة في الأشهر المقبلة، فما الذي أجّل المواجهة طوال هذه السنين حتى أصبحت سيناريو مستبعداً وغير محبّذ بالنسبة للجيش الأميركي، على الرغم من الاحتجاجات الإسرائيلية؟

شروط اللعبة

لو كان الهدف هو عقد مقارنة عسكرية بين قدرات إيران والقدرات الأميركية، لكانت الإجابة سهلة وواضحة: لا يوجد أيّ نوعٍ من التكافؤ بين موارد وامكانيات البلدين، لا من ناحية الميزانية ولا المستوى التكنولوجي ولا التجهيز والمعدّات.

أكثر الدبابات الإيرانية قديمة، عمرها أكبر من عمر الثورة، والأمر نفسه ينطبق على سلاح الطيران. آخر صفقة عسكرية جدية عقدتها إيران مع الخارج لتحديث الجيش كانت في بداية التسعينيات، حين اشترت عدداً من دبابات "تي ٧٢" وطائرات "ميغ ٢٩" من روسيا - إضافة الى غواصتين - هي "أحدث" الأسلحة المستوردة في ترسانة إيران التقليدية اليوم.

من ناحية أخرى، فإنّ المواجهة مع إيران لا تنطوي على حربٍ مباشرة عبر حدود البلدين، بل إنّ على المهاجم ارسال قواته الى منطقة تبعد آلاف الكيلومترات عن البرّ الأميركي، ونشرها على مسافة طيران من إيران، وتأمين طرق آمنة للتزويد الجوي بالوقود، والسيطرة على بحيرةٍ ضخمة - هي الخليج الفارسي - يقلّ عرضها في كثير من الأماكن عن المئتي كيلومتر وعمقها عن الخمسين مترًا. دخلت البحرية الأميركية الخليج الفارسي في الثمانينيات، مستغلة ظروف الحرب بين العراق وايران، وفرضت نفوذها بالقوة بعد سلسلة مناوشات تحوّلت الى حربٍ خاطفة ضدّ البحرية الإيرانية، كسبتها القوات الاميركيّة بسهولة ("عملية فرس النبي"). والعراق نفسه لم يكن راضياً عن هذا التمدّد الاميركي، وإن كان موجّهاً ضدّ عدوّه، فضربت طائرة عراقية عام ١٩٨٧ الفرقاطة الأميركية "ستارك" بصاروخ "اكزوسيت" فرنسي الصنع، موقعة اكثر من ٣٥ قتيلاً أميركياً.

قالت الحكومة العراقية إنّ الهجوم قد حصل بالخطأ، ولكنّ العديد من المحللين اعتبروا الصاروخ رسالةً عراقية لثني أميركا عن التواجد العسكري في تلك المنطقة الاستراتيجية - خصوصاً مع وجود

ادعاءات بأن الطيار لم يعاقب، بل تمت ترقيته اثر "الحادثة" (فرضت الولايات المتحدة على العراق عام ٢٠١١ انشاء صندوق بقيمة ٤٠٠ مليون دولار مخصّص لدفعِ تعويضات لضحايا "ستارك" وأسرى الحرب الأميركيين خلال الغزوات المتعددة التي شنتها واشنطن ضد العراق). أثناء حرب الخليج الفارسي عام ١٩٩١، صار الوجود العسكري الأميركي مكرّساً وله قواعد دائمة وبنية دعم متكاملة، بعد عقد اتفاقات "حماية" شبه استعمارية مع كلّ دول الضفة الغربية للخليج الفارسي.

بهذا المعنى، فإنّ هناك تشابهاً ما بين حالتي إيران والصين، إذ إنّ البلدين يضعان نصب أعينهما هدفاً عسكرياً محدداً: مواجهة هجوم غربيّ، يرفده حلفاء محليون، ومنعه من بسطِ السيطرة الكاملة على المجال البحري الذي يحيط بالبلد وحصاره وضربه.

الفارق هو أنّ الصين تتوقع مواجهة محدودة وعنيفة في بحر الصين الجنوبي، في اطار التنافس على النفوذ، ولكنها تعرف ايضاً أنّ هكذا اشتباك لا يمكن أن يتطوّر الى اجتياحٍ لبرّ الصين أو الى هجوم يهدف لقلب النظام وتدمير اقتصاد البلد، نظراً الى عامل الردع النووي الذي تحوزه الصين ولا تملكه إيران - بعد، وهو تحديداً السيناريو الذي تريد أميركا منعه.

لو كانت ظروف المواجهة مختلفة، ولم يكن الخليج الفارسي ساحة الحرب المحتملة، لما شكلت أغلب أنظمة التسليح الإيرانية تهديداً للقوات الأميركية. إيران، مثلاً، ركزت على استيراد الصواريخ الحديثة المضادة للسفن من الصين (من فئات "سي-٨٠١" و"سي-٨٠٢") وتطويرها وبناء نسخ جديدة منها يفوق مداها الـ٢٠٠ كيلومتر وبنظم توجيه متعددة.

هذا لا يعني شيئاً كثيراً لو كانت المواجهة تجري في عرض المحيط، حيث تقوم حاملات الطائرات والمدمرات التي ترافقها بإنشاء منطقة تحريم تمتدّ على أكثر من ٤٠٠ كيلومتر في كلّ الاتجاهات، لا يمكن أن يعبر ضمنها زورق أو طائرة، ناهيك عن اطلاق صواريخ باتجاه السفن الأميركية. في الخليج الفارسي، الوضع يختلف، فالمسافة بين البرّ الايراني وقاعدة الأسطول الخامس في البحرين تقلّ عن ١٩٠ كيلومتراً، ما يعني أن أية قطعة اميركية في الخليج الفارسي تقع ضمن مدى الصواريخ التي تطلقها الزوارق السريعة والطائرات، اضافة الى عدد ضخم من المنصات الأرضية المتحركة التي تنشرُ على طول الساحل الشرقي للخليج الفارسي.

بالمعنى نفسه فإنّ الغواصات الصغيرة، التي تنتجها الأحواض الايرانية بالعشرات، لا قيمة لها اطلاقاً في المياه الزرقاء، حيث تجول الغواصات الاميركية مع الطائرات في "فرق صيد" لقمع هذا النوع من التهديدات، ولكنّها - كالألغام البحرية - تصير سلاحاً مخيفاً في الخليج الفارسي الضحل، الذي يعجّ بالأهداف ولا يعمل فيه السونار بكفاءة - اضافة الى أنّ الغواصات الاميركية الضخمة لا تقدر اصلاً على العمل والغطس في أغلب أجزاء الخليج الفارسي.

هذه المعادلة تنطبق ايضاً على القواعد الاميركية في الدول المجاورة وترسانة ايران الصاروخية. يقول بعض الايرانيين إنّ صاروخ "فاتح ١١٠"، الذي يمتاز بالدقة وقد صدرت منه ثلاثة اجيال على الأقل حتى الآن، يسمّى "صاروخ لبنان" بين الإيرانيين، لأن مداه ومواصفاته تناسب الساحة اللبنانية بشكل كبير، كأنه صمّم لأجلها، غير أنّ "الفاتح" يضعُ ايضاً القواعد الاميركية في قطر والامارات والسعودية تحت تهديده (اضافة، بالطبع، الى المنشآت النفطية ومرافق التصدير التي تجاور هذه القواعد)؛ وايران تحتفظ، اضافة الى الفاتح، بأعداد هائلة من صواريخ "شهاب ٢" و"شهاب ٣"، بعد سنوات من تراكم الانتاج، والتي يمكن استعمالها في موجات كبيرة لإغراق الدفاعات الصاروخية - سواء في الخليج الفارسي أو في افغانستان.

حربٌ بلا حدود

يوجد عاملان يلخّصان أسباب التردّد الأميركي في خوض المغامرة العسكرية ضد إيران: أوّلاً، صعوبة حصر الحرب وابقائها ضمن الحدود التي تريدها اميركا. وثانياً، لأنّ الحرب ضدّ إيران تهدّد بأن تكون المواجهة الأولى التي يخوضها الجيش الاميركي ضمن شروط "الحرب الحديثة"، بمعنى وجود خصم لا ينتمي جيشه للقرن الماضي، بل يعرفُ مسبقاً نقاط القوة الاميركية ويحضّر الوسائل التقنية لإبطال مفعولها. بتعبير آخر، فإنّ حرباً ضد إيران لن تكون ميداناً مفتوحاً لاستعراض التكنولوجيا الأميركية المتفوّقة، بل إنّ الجيش الاميركي يعرف انه سوف يدخل الى ساحة يتمّ التشويش فيها على نظام "جي بي اسً"، وقد لا تتمكن الطائرات من دون طيار من الاتصال بقواعدها عبر الأقمار الصناعية، بل إنّ اميركا قد تحرم من الاستطلاع الفضائي والالكتروني - وهذه كلها أركان أساسية في عقيدة الحرب الأميركية اليوم (من شبه المستحيل، مثلاً، استعمال الذخائر بعيدة المدى في غياب نظام الجي بي اس، فيصير البديل الوحيد هو التوجيه باللايزر أو عبر الكاميرات، ما يستلزم أن تكون الطائرة القاذفة، أو طائرة من دون طيار، في جوار الهدف وضمن مدى الدفاع الجوي.

هذه المخاوف ليست مبالغات أو تقديرات، بل هي كلها مبنيّة على التجربة، وعلى قدرات تمّ اثباتها في الميدان. على سبيل المثال، في الشهر نفسه الذي تمكنت إيران فيه من التحكم بطائرة تجسس أميركية "خفية" وانزالها وأسرها العام الماضي، تفاجأ الأميركيون حين قام الإيرانيون بـ"اعماء" قمر صناعي للتجسس كان يمرّ فوق إيران، عبر شعاع لايزر ضرب عدسته على الأرجح. العبرة من الحادثتين هي في أنّ إيران صارت تملك رادارات ووسائل استطلاع تسمح لها بتتبّع الطائرات الخفيّة والأقمار الصناعية ذات المدار المنخفض، وهذا - لمن يخطط لحرب - يثير الكثير من المخاوف. قاذفات "البي-٢" الأميركيّة، التي تعتبر رأس الحربة في أي حملة جوية، بطيئة وغير قادرة على المناورة، وتعتمد بشكل شبه كامل على ميزة الخفاء حتى تنسلّ الى الأجواء المعادية وتضرب الدفاعات الجوية؛ وحين تثبت إيران قدرتها على قهر تكنولوجيا الخفاء، تصير أغلى قاذفة في العالم - تملك اميركا أقلّ من عشرين نسخة منها - هدفاً سهلاً للدفاع الجوي.

من جهة أخرى، فإنّ اميركا اعتادت على جيوش "عالمثالثية" تهدّد وترغي وتزبد، ثم يتبيّن انها هيكلٌ هشّ قائمٌ على الدعاية ويخلو من الفعالية العسكرية، إلا أنّ انتشار الميليشيات المدعومة من ايران، واداءها في لبنان وغزة والعراق، يرسمان الحدّ بين الدعاية والجدّ، ويعطيان صورةً لا يمكن دحضها عن المستوى القتالي الذي ستواجهه أية قوة غازية. حين ضربت البارجة الإسرائيلية "هانيت" عام ٢٠٠٦ بصاروخٍ ايراني الصنع، يقول العديد من الخبراء، تأجّلت الحرب على إيران لأعوام. كان العرب أوّل من أدخل الصواريخ المضادة للسفن الى التاريخ العسكري، حين تمكن زورقا صواريخ مصريان من اغراق المدمّرة الاسرائيلية "ايلات" بصواريخ "ستيكس" الروسية القديمة في تشرين الأول من عام ١٩٦٧. ضرب "ايلات" هزّ العقيدة العسكرية للقتال البحري على مستوى العالم، بعد أن فهم المخططون أنّ هذه الصواريخ الجديدة تمكن قارباً صغيراً من تدمير سفنٍ تفوقه حجماً بأضعاف، إلا أنّ العرب لم يتمكنوا من تكرار الانجاز ضدّ اسرائيل لأربعين سنة، حتى عام ٢٠٠٦. الفكرة ذاتها تنسحب على العبوات التي أرعبت القوات الأميركية في العراق، والتكتيكات التي أثخنت الاسرائيليين في غزّة ولبنان، واداء القوى المدربة إيرانياً في سوريا.

داعش والإسلام السياسي

- حبيب فياض

لم يعد يجدي اللجوء الى ديباجة التمييز بين النظرية والتطبيق لتبرئة الإسلام من تشوهات ما يرتكبه بعض المسلمين. التغني بالإسلام نظرياً، بوصفه دين الاعتدال والرحمة، لم يعد يكفي لدحض الممارسات العنفية التي تقوم بها الجماعات التكفيرية من قبيل "داعش" وأخواتها. لقد نجح التكفيريون في تقديم النموذج الديني المشوّه. فالنموذج الداعشي طغى، أمام العالم، على ما عداه من إسلامات سائدة وبات يتصدر الواجهة في التعبير عن "الإسلام" السياسي المعاصر، برغم تبرؤ غالبية المسلمين من الممارسات الداعشية ورفضهم لها.

تستدعي الظاهرة الداعشية جهداً إسلامياً مضاداً، خارج الفعل الميداني والعسكري، للحد من مخاطرها المفهومية على الاسلام نفسه. خطورة هذه الظاهرة تكمن في القدرة على ترويجها لإسلام متشدد يقوم على التكفير والقتل. اذ بمقدار ما يثير الفكر الداعشي من استياء واستنكار لدى بعض المسلمين، صار بالمقدار نفسه قابلا للتبني من قبل مسلمين آخرين. فالداعشية باتت تحتل، قبولاً ورفضاً، مكانة اولية في عقول المسلمين ورؤيتهم الى دينهم. ثمة من هؤلاء مَن راقت له مدرسة الدواعش الى حد المؤازرة لها بالدعاء والتأييد، هذا إن تعذر عليه اللحاق بها والانضمام اليها. وثمة آخرون منهم مَن أصبح مصاباً بـ"فوبيا" داعشية تدفع به الى حد التشكيك في رحمانية الإسلام ووسطيته وصولا، في بعض الحالات، الى ملامسة حدود الردة والانسلاخ النفسي عن الإسلام وتعاليمه. واللافت أنه في كلا الحالتين، إحجاماً وإقبالاً، يتم الاستناد الى القول بأن داعش هي الأقرب الى تطبيق النص الديني والأكثر تشابهاً مع صدر الإسلام!

تربّع أميركا على سدة المواجهة لـ"داعش" يعطي هذه الأخيرة "مشروعية" إضافية لدى الكثير من المسلمين، ذلك انه يكفي ان تعادي واشنطن طرفاً مسلماً حتى يصبح بطلاً وجديراً بالتعاطف معه والالتفاف حوله. حدث ذلك من قبل مع حركة "طالبان"

برغم ديماغوجيتها واستبدادها، وحدث مع صدام برغم دكتاتوريته و"مآثره" المشهودة في العراق والمنطقة، فيما يحول العامل المذهبي دون اكتساب إيران التعاطف نفسه برغم العداء الأميركي لها، في وقت ادّخرت فيه الحركة الداعشية معظم رصيدها تحت عناوين وشعارات فئوية ومذهبية.

لا يكفي لإسقاط فكر الداعشيين الوعظ والإرشاد والحديث عن وسطية الإسلام واعتداله. كما لا جدوى من نزع الشرعية عنهم عبر استحضار النصوص الدينية التي تحض على الاعتدال والرحمة والمحبة. الفعل الداعشي المتشدد لا يدحضه إلا فعل ديني معتدل ويوازيه في الضدية. ولا قيمة للحديث عن نصاعة المفهوم الديني، مهما كان ناصعاً في الحقيقة، ما دام الداعشيون يمسكون بناصية الممارسة والتطبيق. المعضلة الداعشية في العالم الإسلامي تتجاوز المعطى السياسي والمذهبي. الخلاص من "داعش" وأخواتها يحتاج الى إعادة بناء حضاري تفتقده المجتمعات الإسلامية، ولا مفر من الاعتراف أن المد الداعشي ليس سوى نتاج التخلف الديني، باعتبار أن فهم الدين وتطبيقاته مقوم جوهري في حالتي التخلف والتقدم لدى المسلمين.

لا حدود للأضرار التي ألحقتها الحركة الداعشية بالإسلام السياسي عموماً والسني على وجه الخصوص. ذلك أن المتصور في المشهد الراهن أن كل دمج بين "الإسلامي" و"السياسي" بات ينتج تجارب مشوهة، ويفضي الى تداعيات ذهنية ونفسية اقرب الى استحضار التجربة الداعشية من اي إطار سياسي آخر. قد يكون المطلوب، في هذا الخضم، من الحركات الإسلامية إجراء مراجعة تنتهي الى ممارسة الإسلاميين للسياسة من دون العمل على تطبيق الإسلام سياسياً. في مثل هذه الحالة يمكن النأي بالإسلام عن موبقات التجارب المشوهة.

ماذا حصل عشية دخول "انصار الله" الى صنعاء؟

نضال حمادة

يروي المندوب الاممي الى اليمن الدبلوماسي المغربي (جمال بنعمر) مضمون اتصال هاتفي جرى بينه وبين دبلوماسي بريطاني في صنعاء قبل عدة أسابيع عندما بدأ بنعمر عملية التفاوض الطويلة بين سلطة عبد ربه منصور في صنعاء بين قوات الحوثيين التي كانت تتقدم باتجاه العاصمة التي دخلته قبل أسبوع تقريبا. وقال الدبلوماسي المغربي الذي يشغل منصب المبعوث الدائم للأمم المتحدة الى اليمن، انه عشية بدء عملية التفاوض بين الحوثيين الحكومة اليمنية السابقة، اتصل بي دبلوماسي بريطاني محتجا على قيامي بعملية الوساطة ونجاح خطة التفاوض حينها، وقال:

كيف تجري عملية تفاوض دون مشاورتنا مضيفا انه أجاب البريطاني بالقول ان مهمته في اليمن هي إيجاد حل دبلوماسي للصراعات هناك فقال الدبلوماسي البريطاني: أنا هنا ممثل حلف شمال الأطلسي ولا يمكن ان تتم اية عملية تفاوض من دون علمي، فقال له بنعمر: انا المندوب الدائم للأمم المتحدة الى اليمن وأقوم بمهمتي كما حددت لي.

ولم تكن عملية التفاوض هذه وحدها التي فاجأت القوى الغربية المنغمسة في حرب جديدة مقدسة في الشرق الاوسط وهذه المرة ضد تنظيم (داعش)، فتمكن قوات انصار الله من دخول العاصمة اليمنية صنعاء بمعركة نظيفة الى حد بعيد ودون التسبب بأية اضرار في الممتلكات العامة ومع الحفاظ على الحد الاقصى من النظام العام، فاجأ الغرب وحلفاءه الإقليميين، وفاجأ ممثل حلف شمال الأطلسي البريطاني الذي أسقط بيده من عملية الحسم العسكري النظيف في صنعاء ونجاح مفاوضات التسوية، فلم يجد أمامه سوى جمال بن عمر ليصب عليه كل غضبه ويحمله مسؤولية عدم علمه بالمفاوضات او عدم رغبته بهذه المفاوضات بكل بساطة.

وتشير مصادر عربية مقربة من بنعمر أن

الرجل التقى قبل عدة أسابيع في أوروبا بعض الوجوه السورية المعارضة، وحذرها من كذب الدول الغربية وعدم رغبتها بتوقف الحرب في سوريا، وقالت المصادر أن الدبلوماسي المغربي قال للمعارضين السوريين لا تعتمدوا إلا على انفسكم للخروج من هذه الحرب لأن الدول الغربية لا يهمها القتل والدمار الذي يحصل في سوريا.

من جهة ثانية وعشية قرار القوات التابعة لأنصار الله (الحوثيين) بدخول العاصمة اليمن صنعاء، حصلت اتصالات من جهات اسلامية وعربية مع قيادة الحوثيين تستوضحهم عن الأمر وكان هناك بعض القلق من جانب بعض الدول غير أن السيد عبد الملك الحوثي قال للجهات المتصلة انه يأخذ الامر على عاتقه الشخصي وأن كل شيء مدبر بعناية وسوف ينتهي الامر سريعا وبشكل نظيف.

وتشير مصادر مقربة من هذه الاتصالات أن القيادة الحوثية تعاملت بفطرية عشائرية مع غالبية الكتل البشرية والعسكرية المناوئة التي كانت في صنعاء وعبر التواصل القبلي والعشائري في المدينة.

وتقول المصادر ان الشق العسكري من الاتفاق لم يوقع بعد لحد الان بسبب عدم الاتفاق على خروج قوات انصار الله التي دخلت العاصمة، وما زال الغموض يحيط بالموقف وقد طرح بنعمر تولي قوات محايدة من الجيش الامن في صنعاء وسمى بعض القوات التي تنتمي الى تعزولم يتم التوصل الى اتفاق بهذا الشأن ما يثير مخاوف من انهيار الاتفاق الهش.